المقامات والمشاهد والمعالم التاريخية في " بعلبك " ومنطقتها وضرورة إحيائها وتجديدها

الشيخ د. جعفر المهاجـر

تحفل مدينة " بعلبك " ومنطقتها بمجموعة من المعالم التاريخية ، ما بين مقام ومشهد ومدرسة ، طال عليها الأمد ، وعانت من وطأة الإهمال والنسيان قروناً طويلة، على الرغم من اتصالها المباشر بوجدان الناس وولائهم . وذلك بسبب ظروف سياسية ظالمة وعدائية ، أدّت إلى سيطرة الجهل والخوف ، وحصرت هموم أهليها في لقمة عيشهم وأمنهم الشخصي ، وحجبتهم عن الاهتمام بما تهتم به الجماعات الإنسانية عادةً من معالم ورموز تتصل بثقافتها وتاريخها .

والسبب الرئيس في وجود أغلب هاتيك المعالم في " بعلبك " بالذات ، هو وقوع المدينة على الطريق الرئيسي ، المسلوك منذ غابر الزمان ، الذي يوصل بين بر " الشام " وشواطئ البحر المتوسط وصولاً إلى " مصر " ، وبين " تركية " و وادي الرافدين ، وصولاً إلى " إيران " . وهو الطريق الذي قضى عليه ظهور السيارة القادرة على عبور الطريق المختصرة نسبياً عبر بادية " الشام " .

ذلك هو الذي جعل من " بعلبك " في الماضي مدينة رئيسيّة . بل الحقيقة التي يعرفها جيّداً المعنيّون بتاريخ المدينة العريقة ، أن ذلك هو السبب في تمصيرها ، وفي بناء قلعتها الشهيرة ، للسيطرة على الطريق الحيوي الذي تقع عليه . وهو المركز الممتاز الذي فقدته في هذه الأيام ، بعد أن جرت قسمة المنطقة قسمة سياسية جديدة ، جعلت من المدينة المجيدة مدينة طرفيّة ، بعيدة عن القلب وعن مُضطرَب الأحداث .

خلاصة القول : إنه لولا وقوع " بعلبك " على هذا الطريق الحيوي لَما مرّ فيها سبايا " كربلاء " وهم يُحملون إلى " دمشق " ، ولَما حظيت من بعد بـ " مشهد رأس الإمام الحسين (ع) " الذي أُقيم حيث وُضع الرأس الشريف ، ثم جرى تحويله فيما بعد إلى مسجد ، فانضاف إلى شرفه شرف أكبر. كما بيّنا في رسالتنا (مسجد ومشهد رأس الإمام الحسين في بعلبك) . ولا بمقام السيدة خولة بنت الإمام الحسين (ع) . وأيضاً لَما مرّ فيها التابعي الجليل ، صفيّ أمير المؤمنين علي عليه السلام ، مالك الأشتر رضوان الله تعالى عليه ، متجهاً إلى " مصر " البعيدة ، امتثالاً لأمر أمير المؤمنين عليه السلام ، بعد أن ولاّه عليها ، ليتولّى من هناك تقويم ما اعوجّ في " صفين " ، فكان أن نال درجة الشهادة فيها . لتتشرّف المدينة باحتواء أرضها جسده الشريف . ثم ليكون هذان المقامان وذلك المشهد في مستقبل أيامها من معالم المدينة ، وعنواناً لتواصل عميق بينها وبين مسرح التاريخ ورموزه في تلك الأيام البالغة الخطر وما حفلت به من أحداث جِسام .

أمّا " مشهد رأس الإمام الحسين (ع) " فهو بناء واسع ، تبلغ مساحته الإجماليّة ١٥٦٧م٢ ، قائم قرب نبع رأس العين الشهير جنوب " بعلبك " . تدلّ الخرائب الباقية منه على ما كان عليه من عظمة وجلال . ولكنه ، حتى في وضعه هذا ، أحد الشواهد التاريخيّة الباقية ، ذات الدلالات العديدة والقويّة على ما كان من أمر المدينة وأهلها في سالف الأوان ، ممّا ضاع ذكره بتوالي العصور . وهو أحد ستة مشاهد خلّد فيها السلف مسير سبايا " كربلاء" منذ دخولهم أرض " الشام " بعبورهم " نهر الفرات " حتى وصولهم إلى " دمشق " . إذ أقام

ستة مشاهد في الأماكن التي نزلها الرّكب . ما تزال جميعها باقية ، باستثناء المشهد الذي كان في قرية " مسكنة " ، التي غمرتها البحيرة التي نشأت ببناء السدّ على " نهرالفرات " . وهي :

١ ــ مشهد " بالس " التي عُرفت فيما بعد بـ " مسكنة " .
٢ ــ مشهد " جبل الجوشن " في " حلب " .
٣ ــ مشهد الرأس في " حماة " ويُعرف اليوم باسم " جامع الحسين " .
٤ ــ مشهد الإمام زين العابدين (ع) قرب " حماة " .
٥ ــ مشهد رأس الحسين في " بعلبك " .
٨ ــ مشهد رأس الحسين في " دمشق " شرقي " الجامع الأموي " .

ولقد أثبتنا في الرسالة التي وضعناها على هذا المشهد / المسجد ، تحت اسم (مسجد ومشهد رأس الإمام الحسين عليه السلام في بعلبك) ، أ ن التأسيس الأول له على علاقة بجملة حقائق تاريخيّة تتصل بهويـّة الناس في المنطقة يوم ذاك ، ممّا بسطنا الكلام عليه في الفصل المخصّص لـ " بعلبك " وجوارها .من كتابنا (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية) . فليرجع إليه المُستزيد .

وأمّا مقام التابعي الجليل ، مالك بن الحارث الأشترالنخعي رضوان الله عليه ، فهو قبر صغير شمال مدينة " بعلبك " ، خلف قلعتها الشهيرة ، غير بعيد عن الطريق المسلوك ، حيث كان قديماً أحد أبواب المدينة ، المعروف بـ " باب حمص " . بجانبيه من الجهتين قبران آخران أصغر حجماً . والقبور الثلاثة تعاني من إهمال مُزمن .

ولقد بيّنّا في الرسالة التي وضعناها على المقام ، ونُشرت بعنوان (مالك الأشتر ومقامه في بعلبك) أنه حتى أواسط القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد على الأقل ، فإنه كان من المعروف والمشهور بين الكافة ، أن هذا القبر هو قبر الأشتر صاحب أمير المؤمنين ، وأنه كان من المزارات المقصودة . والحقيقة أنه ما يزال كذلك حتى اليوم ، حيث لا يزال يُعرف بـ " قبر سيدي مالك " . كل ما في الأمر أنه ، بسبب غلبة الجهل على الناس ، الرازحين لقرون تحت أكثر أشكال الحكم قسوة ، أعني المملوكي ثم العثماني ، فقد تناسوا مَن هو صاحب القبر بالتحديد ، ولم يحفظوا إلاّ أن اسمه (مالك) دون تحديد . ومع ذلك فإنهم ، حتى في هذا ، هم أصحاب فضل . فلولاهم لضاع هذا الأثر الجليل إلى الأبد .

ثم أن في منطقة " بعلبك " وجوارها معلمان آخران يتصلان بمرحلة متأخّرة نسبياً من تاريخها . ينبغي أيضاً الإلفات إلى أهميتهما البالغة ، وإلى ضرورة إحيائهما وتجديدهما ، فضلاً عن إحاطتهما بما تستحقان من عناية ، هما :

الأول : المنزل الذي أقام فيه الفقيه الجليل الشيخ حسين بن عبد الصمد الجباعي ، مدّة تقرب من اثنتي عشرة سنة في قرية " إيعات " المجاورة لـ " بعلبك " . وفيه أبصر النور ابنه العالم الكبير ، أحد أشهر علماء الشيعة في كل العصور ، محمد ، المشتهر ببهاء الدين العاملي ، وبالشيخ البهائي . نزلها الأب بنزول شيخه وأستاذه ، الشهيد الثاني ، زين الدين بن علي الجباعي ، بعد عودتهما من " استامبول " . فنزل الشهيد " بعلبك " ، متفرّغاً للتدريس والإفتاء وما إلى ذلك في مسجدها الكبيرومدرستها . أمّا تلميذه ابن عبد الصمد فقد آثر الاستقرار غير بعيد في قرية " إيعات " ، على الأرجح بسبب رابطة النسب البعيد التي تصله بأهلها الهمدانيين مثله .

وجدير بالذكر أن أهل القرية حافظوا ، بمبادرة ذاتيّة منهم ، وبإمكاناتهم المتواضعة ، على موقع المنزل ، خلال زهاء الخمسة قرون الماضية . فلم يُزيلوا معالمه . مع أنه ليس بذي قيمة ماديّة ، و لا نفع يُرتجى منه . ممّا يدلّ على إدراكهم لقيمته التاريخيّة . الأمر الذي يستحق منّا اليوم أقصى درجات التنويه والتقدير.

والبناء من غرفتين فيما يبدو . مبني بأحجار غير مشذّبة ، وقد أُخضع عن قريب لعمليّة ترميم فقيرة ، بملء الفراغات بين الأحجار بالملاط الإسمنتي . على جداره الخارجي محرا ب ، يبدو أنه أثر من مسجد أو مُصلّى .

في هذا البيت البالغ التواضع وُلد ونشأ وتلقّى دروسه الأُولى من أبيه ، أشهر إنسان عاش في القرن الحادي عشر للهجرة / السادس عشر للميلاد في مشرق العالم الإسلامي . مَن ملأت تصانيفه الدنيا في مختلف العلوم والفنون . وما تزال آثاره ، الأصيلة في مناهجها ، محل عناية الباحثين حتى اليوم . ويبدو أنها ستبقى كذلك لمدّة طويلة .

الثاني : الحوزة العلمية في " الكرك " .

وهي قاعة مستطيلة مبنيّة بالأحجار المعقودة ، موقعها خلف المسجد الجامع في البلدة ، الذي هو أقدم مسجد للشيعة في " سهل البقاع " . ما يزا ل الجزء الرئيس من هيكلها الأساسي قائماً ، و لاندري حتى مَ سيبقي معانداً لعوادي الزمان . وهو الذي صمد حتى الآن زهاء الستة قرون .

ومن المعلوم أن " الكرك " كانت لمدّة تناهز القرن من الزمان أحد المراكز العلميّة . فيها درج ومنها تخرّج جمع من أفاضل العلماء . ومنهم مَن ما نزا ل حتى اليوم نتفيّأ ظلال أفكارهم وأعمالهم .

في هذه القاعة درس ودرّس محمد بن عبد العالي الكركي (ت : ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) والمؤسّس لمجد " الكرك " ا لحسن بن أحمد بن يوسف الكسرواني ، المعروف بابن العشرة (ت : ٨٦٢ هـ / ١٤٥٧ م) ومحمد بن علي الجباعي (ت : ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م) ومحمد بن محمد بن المؤذن الجزيني (ح : ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م) ومحمد بن أحمد الصهيَوني (ح : ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م) وعلي بن هلال الجزائري (ح : ٩٠٩ هـ / ١٥٠٢ م) وعلي بن عبد العالي الكركي ، الشهير بالمحقق الكركي (ت : ٩٤٠ هـ / ١٥٣٣ م) والحسن بن جعفر بن الأعرج (ت : ٩٨٣ هـ / ١٥٧٥ م) وعلي بن هلال الكركي (ت : ٩٨٣ هـ / ١٥٧٥ م) وزين الدين بن علي الجباعي ، الشهير بالشهيد الثاني (ق : ٩٦٥ هـ / ١٥٥٧ م) وحسين بن الحسن الموسوي الكركي ، الشهير بالسيد حسين المجتهد (ت : ١٠٠١ هـ / ١٥٩٢ م) وغيرهم . ولا أعتقد أن هناك بقعة محدّدة في هذه المنطقة قد حظيت بمثل هذا الشرف العظيم .

في الختام نقول :

باستثناء مقام السيدة خولة رضوان الله عليها ، الذي يُشاد الآن على النحو الذي يليق بمقامها ، فإن المعالم الأربعة الأخرى ، وخصوصاً قبر صفيّ أمير المؤمنين عليه السلام ، مالك الأشتر، هي في حال تُنذر بالخراب النهائي وزوا ل معالمها . وذلك أمر إن حصل لا قدّر الله سيكون خسارة لا تُقدّر بثمن .